الإرهاب الأحمر وتهافت البروباغندا [2/1]: حملات التـ

حسن الخلف *

في عام 1996 كتب المؤرخ البريطاني الماركسي المرموق أريك هوبزباوم عن أن ادعاءات البروباغندست البريطاني روبرت كونكويست المتعلقة بما أسماه الإرهاب الأحمر انتفت صلاحيتها وعفا عليها الزمن، وبخاصة بعد أن تم فتح أرشيف الاتحاد السوفياتي أمام الباحثين (1). ولكن هوبزباوم وغيره من المؤرخين الغربيين أخفقوا إلى حد كبير في الاستفادة مما وفره لهم هذا الأرشيف، فلا الأخير ولا كونكويست سعيا إلى إجراء مراجعة حقيقية له، ولعل جهل هوبزباوم بالروسية (سأفترض أنه لا يتقنها) هو ما أعاقه عن فعل ذلك.

ما سنطرحه في هذا المقال مسائل محددة، وهي معالجة فكرة «توتاليتارية» الدولة السوفياتية في الحقبة الستالينية الأولى بين 1928-1939، نظرية التطهير وكيف تفهم وفق دراسة التي اعتمدناها باعتبارها الأولى من نوعها. ومسألة ديمقراطية الحزب الشيوعي السوفياتي (داخلياً) ومعالجة لتفاصيل أخرى. وهنا نستميح القارئ العذر مقدماً للغوص بالتفاصيل المملة أحياناً وذلك لإثبات وتوضيح هذه النقاط.

أرشيف سمولنسك بيد الأميركيين

مع بدء عملية «بربروسا» في حزيران 1941 اجتاحت القوات الألمانية أراضي الاتحاد السوفياتي. وأخذت المدن السوفياتية تتساقط الواحدة تلو الأخرى بمقاومة أو من دونها. وكان من عادة أعضاء الحزب الشيوعي السوفياتي أن يحرقوا كل سجلات الحزب فور انسحابهم حتى لا يطّلع عليها الأعداء. ولم ينجُ من كامل سجلات غرب الاتحاد السوفياتي سوى أرشيف فرع الحزب الشيوعي لمدينة سمولنسك، التي وقعت بيد الألمان فنقلوها معهم إلى غرب ألمانيا. وعادت السجلات في وقت لاحق لتقع بيد غاز آخر هو القوات الأميركية عام 1945 لدى احتلالها ألمانيا والتي نقلتها بدورها إلى بلادها البعيدة.

باستثناءات قليلة كدراسة Merle Fainsod عام 1958 المعنونة بـ«سمولنسك تحت الحكم السوفياتي» فإن الأميركيين وللغرابة لم يولوا اهتماماً لهذه السجلات ولو من باب فهم خصمهم الشيوعي. ومنذ دراسة «فينسود» المذكورة بقيت التجربة السوفياتية عرضة لأهواء الصحافيين والكتاب والمؤدلجين وحملات «السي آي ايه» حتى ظهرت أول محاولة جدية لفهم طبيعة الحكم السوفياتي وذلك عام 1985 بواسطة المؤرخ J. Arch Getty. والذي يعتبر عمله البداية الأولى للدراسات الجادة والمنصفة حول الستالينية «كحكم ونظام حضاري» كما وصفها مؤرخ أميركي آخر هو ستيفن كوتكن والذين وبطبيعة الحال لم يفلحوا في إضعاف حملات التشويه التي شنّها الغرب بلا توقف منذ 1945 حتى 1991.

أما بالنسبة إلى مقالنا الحالي فسينقسم إلى ثلاثة محاور، يكون الأول فيهما لمراجعة فكرة توتاليتارية الاتحاد السوفياتي وفكرة «تطهير الحزب». بينما سيُخصص الثاني للحديث عن صراعات الكتل الحزبية والثالث عن البيرقراطية والثقافة الحزبية وحملة 1937 في الاتحاد السوفياتي.

يعدّ أرشيف سمولنسك واحداً من أهم الأرشيفات السوفياتية التي وقعت بيد الغرب. فالأرشيف يحتوي على سجلات القطاع الغربي السوفياتي من 1917 وحتى 1939 وعلى كل المراسلات من مستوى الإقليم، فمحافظات، فمدن، وصولاً إلى الخلية خلال هذه الفترة. وقُسّم الأرشيف إلى ثلاث دوائر، الأولى تتضمن ملفات الأعضاء (أعضاء الحزب الشيوعي)، أما الثانية فتحتوي على محاضر اجتماعات الأعضاء (من كل المستويات)، والأخيرة هي تلك المتعلقة بالمراسلات بين موسكو والأقاليم، القرارات المركزية، والوثائق الإدارية الأخرى.

ويفترض بكل من سيتعرض لمرحلة قاسية وطويلة كالتجربة الستالينية أن يتجنب الشهادات الشخصية التي كان يرى «جيتي» بأنها تعرض للحرارة لا للضوء. فعند التحقيق التاريخي لا يمكن الاعتماد فقط على الوثائق والشهادات الشخصية في كتابة التاريخ، حيث يقول مؤرخ الثورة الفرنسية لويس غوتشالك إنّ معظم هذه الشهادات كتبها أناس بفترات متأخرة من عمرهم لجمهور ذي مزاج معاد وميال لتصديق مثل هذه القصص والحكايات. كما أن مؤرخ الحرب العالمية الأولى بول فوسيل رأى بأن الشهادات الشخصية تندرج ضمن الأدب الخيالي، ولكنها تختلف عن «الرواية الأولى» بأنها تفارق الحقيقة كلما ابتعدت عن التفاصيل اليومية، لصالح وصف الأحداث التاريخية التي ستكون مشبعة بالفنتازيا والرموز.

النظرة من الريف حول التوليتارية

يجادل «جيتي» بأنه من الصعب على الاتحاد السوفياتي أن يكون توتالياتارياً أو شمولياً في الثلاثينيات حين كان لا يزال مجتمعاً زراعياً بدائياً ومتخلفاً، وهذه ليست من سمات الدول الحديثة. فلقد كان قرابة الـ67% من أبناء الاتحاد السوفياتي يعيشون في الريف، لا تصلهم قرارات الحزب وخططه بيسر وسهولة، كما كان الحزبيون الشيوعيون وقتها أقلية صغيرة في تلك المناطق. فالشمولية نظام هيمنة واختراق حديث ومتقدم، مرتبط بصعود «المجتمع الصناعي» والذي وبسبب تقدمه وتطوره التكنولوجي يتيح سرعة نقل الأوامر من أعلى إلى الأسفل، ومن المركز إلى الأطراف، وإحكام الرقابة على الأفراد ومخاطبتهم وعزلهم وفرض التشظي عليهم. وهذا كله لم يكن موجوداً في الاتحاد السوفياتي (1917 - 1939) أي قبل الحرب العالمية الثانية. فهذه البلاد الغنية بالموارد والمترامية الأطراف، لم تكن سوى مجتمع ريفي زراعي، ولم تكن لدى ستالين البيروقراطية المدربة والفعالة والكفوءة التي ستسمح له بفرض نظام دولة بوليسية على الناس وقهرهم على الشبهة، وليبني بعدها بلداً اشتراكياً أو شمولياً وبعنف منظم وبالشكل الفظيع كما صوره أعداؤه (سنناقش في مقال مختلف مسألة المزارع الجماعية).

ولتوضيح ذلك أكثر سنأخذ عينة من سمولنسك ولكن قبل ذلك ينبغي الإشارة إلى أن الأوضاع في الاتحاد السوفياتي كانت أقرب إلى سمولنسك منها إلى موسكو، أقله إلى أن تتوافر لدينا المزيد من المواد الأرشيفية. فأمامنا هنا إقليم يعيش 78% من سكانه في الريف كمزارعين بعيداً عن أي تأثير فعال ومباشر للحزب سواء كان ذلك عبر تعاونيات زراعية أو غيرها من وسائط الاتصال بين الحزب والجمهور. فقد بلغ التعداد السكاني لسمولنسك التي هي عاصمة القطاع الغربي بين 1929 و1937 حوالى 6,5 مليون، والمدينة التي تقع على بعد 420 كلم عن موسكو تتصل حدودياً بكل من مقاطعات موسكو ولينينغراد (شرقاً وشمالاً) وبيلاروسيا وأوكرانيا (جنوباً وغرباً) ولاتفيا (في الشمال الغربي). غالبية أهالي الإقليم كانت تمتهن الزراعة في إطار الـ14 ألف تعاونية زراعية التي كانت قائمة في حينه، بينما لم يعش في المدينة سوى 12% عام 1931، و8% عام 1925، ليرتفع الرقم إلى 17% عام 1939 (Getty :1985، p27). شكّل أعضاء الحزب الشيوعي قرابة 89566 عام 1932 و42000 عام 1936 (Getty :1985، p29).

يمكن القول بأن الطابع الأعم للحزب الشيوعي كان مدينياً وأنّ حضوره وقوته الشعبية كانت متواضعة في الريف، ففي مقاطعة «بليي» (Belyi) الريفية لم يشكل الشيوعيون سوى 0,33% من السكان، أي 355 عضواً من مجموع السكان البالغ 91 ألف نسمة. في كل المقاطعة لم يكن هناك سوى 144 عضواً يعيشون في مزارع المقاطعة التعاونية الـ260، أي كان هناك عضو واحد أو اثنان لكل مزرعة. وفي كل المقاطعة لم يكن هناك سوى 7 خلايا حزبية، انخفضت إلى 4 خلايا عام 1936، بينما لم تكن خلايا الحزب تتجاوز الـ 21 خلية لكل المحافظة، 4 في الريف و17 في مدينة بليي (Getty: 1985، p30).

أيضاً فقد كان المستوى الثقافي والتعليمي لشيوعيي «بليي» متدنياً بالنظر إلى حداثة تجربتهم الحزبية، والى أنّ عمر الغالبية فيهم دون الـ40 عاماً، ولا بدّ أن ذلك أثّر سلباً في مستوى القيادة والقدرة على التأثير وكسب الاحترام في محيطهم المحافظ. وبالتالي يمكننا الاستنتاج من حالة «بليي» أن فكرة قيام النظام السوفياتي الشمولي باختراق الريف وتفكيكه لم تكن واردة أو ممكنة التحقيق، فلم يكن الشيوعيون قادرين على إنجاز اختراق كهذا أو تدشين نظام مراقبة وتحكم وتأطير حزبي فعال فيه. لا بل لم يكن الشيوعيون حتى ذلك الوقت وهو عصر «التطهير الكبير» كما عرف في الأدبيات المعادية للاتحاد السوفياتي بقادرين على حماية أعضاء حزبهم في الأرياف من الخطف والقتل، وحرق المزارع وسرقة المواشي حتى عام 1935. فالريف السوفياتي في تلك الفترة كان شبيهاً إلى حد ما بالغرب الأميركي أو حتى شمال العراق وغربه قبل دخول «الحشد» إليه. أرض خطرة، ومرتع للجريمة والتمرد، لم تصلها بعد يد الدولة، وتجوبها عصابات قطاع الطرق وغيرهم من المجرمين والمطلوبين الجنائيين. وكما يبدو في السجلات، أن كبار المزارعين (للكولاك) قد استطاعوا أن يحفظوا لأنفسهم بقايا هيبة ونفوذ في مناطقهم الريفية، وهم من يفترض وبحسب السردية الدارجة أن «الإرهاب الستاليني» كان قد قضى عليهم. غير أن الحقيقة هي أنهم ظلوا حتى عام 1935 على الأقل، مسؤولين وغيرهم عن قيادة بعض هذه العصابات، فاستهدفوا خطف وذبح «الكومسومول» أي الشبيبة اللينينية في الريف من دون أي رادع (Getty: 1985، p30-32).

كما أن وسائل الاتصال لم تكن حديثة ومضمونة فعلى سبيل المثال وفي عام 1937 وهو عام ما عرف بـ«الإرهاب الأحمر»، تعطل هاتف اللجنة المحلية للحزب في المحافظة لشهرين، ولم يكن مكتب الفني المسؤول عن إصلاحه وصيانته يبعد سوى عشر خطوات عن المقر ولكن لم يمتلك أحد في الحزب سلطة عليه!

وهو أمر شديد الغرابة في نظام يفترض أنه متهم بالتوليتارية والقوة والنفوذ والبطش والإرهاب! لذا كان على النظام في الثلاثينيات أن يعتمد على نقل الرسائل على ظهور الخيل لتصل إلى منظماته الحزبية في الريف، كما أن أعضاءه كانوا يتنقلون في الريف على الدراجات الهوائية برغم قسوة الأجواء المثلجة كما يصفها «جيتي». لذلك يمكن القول إن الاتحاد السوفياتي عانى مما يشبه الصراع بين المركز والأطراف وهي المعضلة التي عرفت في الإرث الإداري السوفياتي بين عام 1933-1939 بـ«المسألة التنظيمية». فكانت القرارات لا تصل بين العاصمة وأصغر جسم تنظيمي في الحزب وهي الخلية في تلك الحقبة، وإن وصلت لا يجري تنفيذها كما يجب وكانت عيون السلطة عمياء عما يدور خارج المدن معظم الوقت.

وهو ما اشتكى منه أعضاء اللجنة المركزية باستمرار وذلك لأسباب بنيوية كما رأينا في حالة مدينة «بليي» ومنها أيضاً قلة عدد البلاشفة في الريف. فعلى المستوى الوطني لم تكن نسبة الشيوعيين الحزبيين في الريف - حيث عاش أغلب السكان (67% من السكان) كما أسلفنا - سوى 0,3% أما في غرب البلاد فلم يشكل البلاشفة الحزبيون سوى 1-2% من أهل الريف (Getty: 1985، p30).

فوضى التطهير الستاليني

يقول «جيتي» إنّ طلاب العلوم السياسية الغربيين كانوا دائماً يعانون مشكلة فهم معنى «تطهير» أو (purge) بالإنكليزية. فـ«تطهير» هنا تضع كل أشكال الإقصاء الإداري والسياسي بسلة واحدة، من المحاكمات السياسية، لإرهاب البوليس السياسي، لطرد الأعضاء لأسباب أخلاقية أو إدارية. وهو بالمناسبة ذات الخطأ الذي ارتكبه المستشرقون مع الدولة العثمانية حين عولجت مسألة «السورغون» النقل والتهجير وصنفت كتطهير إثني. أما في السجلات السوفياتية فلم تستعمل ولا

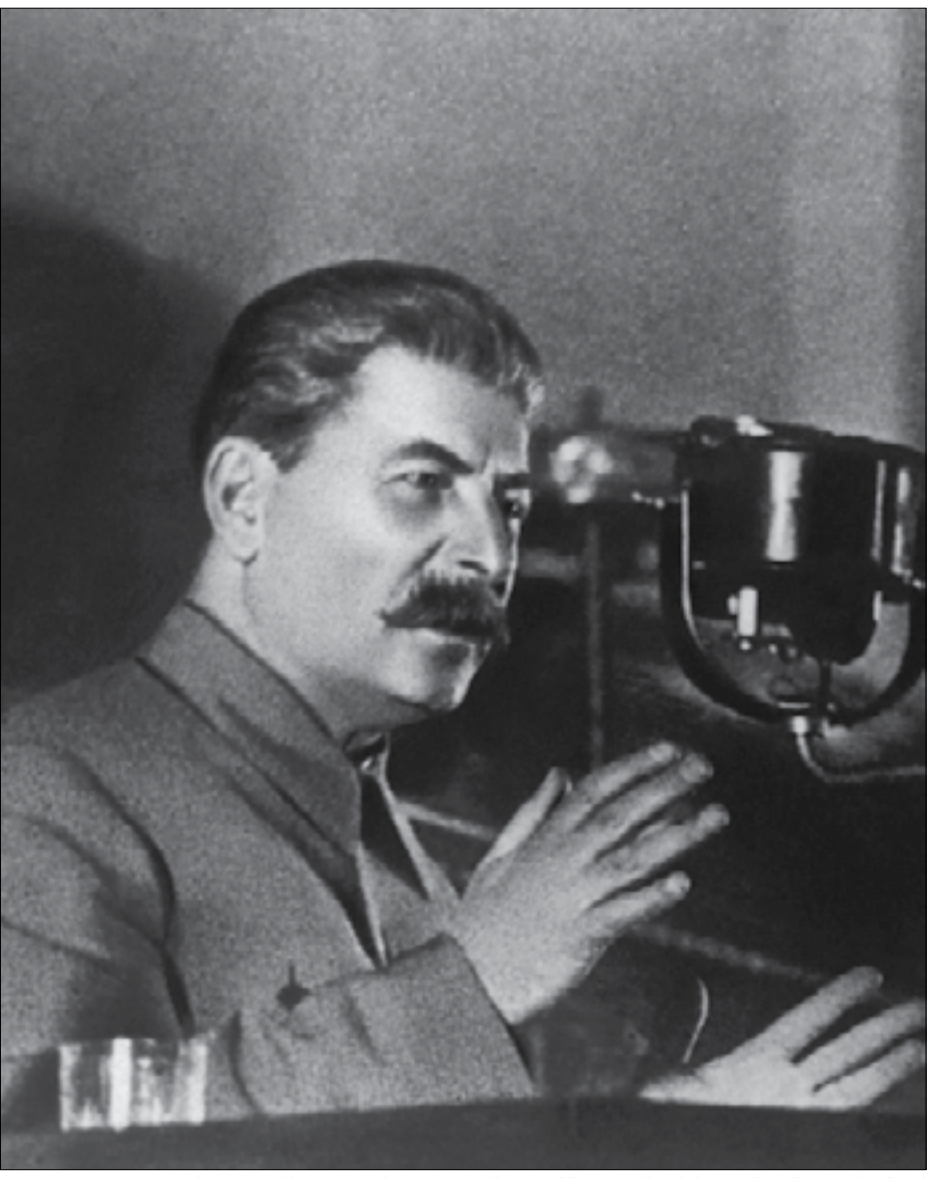

لم تكن لدى ستالين البيروقراطية المدربة والكفوءة التي ستسمح له بفرض نظام دولة بوليسية

> يعدّ أرشيف سمولنسك واحداً من أهم الأرشيفات السوفياتية التي وقعت بيد الغرب

الأخبار al-akhbar
■ رئيس التحرير ـ المدير المسؤول: ابراهيم الأمين
■ نائب رئيس التحرير: بيار ابي صعب
■ مدير التحرير: وفيق قانصوه
■ مجلس التحرير: محمد زبيب، حسن عليق، إيلي حنا، أمل الأندري، شربل كريّم
■ صادرة عن شركة أخبار بيروت
■ المكاتب بيروت ـ فردان ـ شارع دونان ـ سنتر كونكورد ـ الطابق السادس
■ تلفاكس: 01759500، 01759597
■ ص.ب 113/5963
■ الإعلانات: الوكيل الحصري ads@al-akhbar.com 01/759500
■ التوزيع: شركة الأوائل 15ـ01/ 666314 ـ 03 / 828381
■ الموقع الالكتروني www.al-akhbar.com
■ صفحات التواصل
/AlakhbarNews
@AlakhbarNews
/alakhbarnews-paper